العرب
السبت 2019/07/20
السنة 42 العدد 11413

العرب.. عندما يتعافى العراق

حامد الكيلاني
كاتب عراقي

يظل العراق محكوما بكرسي سلطة من صناعة الاحتلال الأميركي، بمعنى أن المتغيرات الحاسمة أو العمليات الجراحية الكبرى لإنقاذ العملية السياسية غير متوقعة أو ممكنة لأن المسؤولين عموما بأحزابهم وأيديولوجياتها ينتمون إلى تاريخ شبه موحد ارتهن مستقبله بالخضوع لإرادة أجهزة الاستخبارات المركزية الأميركية ودورها الأممي، ومشروع إيراني كان قد سبق احتلال العراق بعقود في التعبير عمليا عن أهدافه رغم التكاليف الباهظة التي دفعتها الشعوب الإيرانية من خلال مئات المواجهات والمعارك في حرب طويلة استنزفت ثروات ودماء العراقيين أيضا.

سقطة حكام العراق في استقدام الاحتلال من أجل استلام السلطة لن تتيح لهم إعادة بناء الجسور أو ترميمها مع الشعب خاصة بعد 17 سنة من كابوس الانتقام الدموي وتقطيع أوصال العلاقة بالعالم المتمدن أو بالسلم المجتمعي. وما محاولاتهم في لمّ شتات أحزابهم وكتلهم واختيار مواقفهم للإيحاء بتجديد دماء العمل السياسي وتحديد مساراته المقبلة إلا إدراك منهم باستحالة عودتهم حتى إلى المربع الأول الذي كان فيه عار الاحتلال والتخادم معه كافيا ليكون سببا ومبررا لإيقاف تداعيات التواطؤ الصريح بين قوى الاحتلال الأميركي وقوى الإرهاب الإيراني.

أحزاب وتيارات ومجالس ومنظمات ميليشياوية مسلحة كانت، وما زالت، في حالة إنذار قصوى لتزويد نار الفتنة الطائفية بالوقود خدمة للمحتل الغاصب. قوى ارتضت أن تتنعم بما خلفته سرفات الدبابات الأميركية من فتات. ألم يجر تقسيم العراق في مؤتمر لندن لـ"المعارضة" بنظام المحاصصة وبلغة فارسية تفادت، ولو من باب التلميح والمجاملة لبعض العراقيين الحاضرين، ذكر ولو مفردة عن عروبة العراق؟ وذلك ما حصل وتأكد أثناء كتابة الدستور.

ذهاب بعضهم إلى المعارضة لن يجدي نفعا ولن يؤسس للتغيير، والتهام المال العام والركض خلف المناصب وميزانيات الوزارات ومجالس المحافظات لن يبرئا الأحزاب الطائفية من طائفيتها وجرائمها بحق العراقيين مهما قيل عن زهدها ونأيها عن الجاه والسلطة أو قربها والتزامها بأحكام المراجع المذهبية. فكل أساليب الأحزاب الطائفية لن تبتعد بها عن طموحات حزبية لن ترى في الآخرين من يصلح لأداء المهمة الأعلى سقفا والتي بموجبها سارت في ركب المحتل الأميركي رغم أن قيادات بعض أحزابهم لم تحضر مؤتمر لندن، لكنها التحقت لتكون رأس الرمح لتأسيس قواعد الانتقام من العراقيين إرضاء لولاية الفقيه.

أحزاب إيرانية بكل ما في الانتماء من معنى لمشروع تدمير العراق وترسيخ حقيقة "العناصر المؤمنة بالثورة الإيرانية" التي تحدث عنها المرشد علي خامنئي مؤخرا، والمستعدة لأداء واجب الدفاع عن نظامه وتنفيذ أوامره ضد الشيطان الأكبر وحلفائه، رغم أن عناصره المؤمنة سبق وأن أدت مهامها في مساعدة ذات الشيطان لاحتلال العراق.

أسلوب الصدمة والترويع الذي اتبعه تنظيم داعش الإرهابي يبدو بدائيا مع ما توفرت له من فرص التدريب التقني والإعلامي، لكن أسلوب الميليشيات يطبع عملياته وجرائمه العشوائية المعلنة والموثقة والتي لم تتعرض أبدا، لا في العمليات ولا الخطب المسربة من زعاماته، إلى مناهج العدوان الإيراني، بل كانت تصب في صالح إنضاج التناقضات لمزيد من الاشتباك والتعقيد في أهداف الأطراف الدولية بما يمنع الاستقرار والأمن.

كان ذلك في صميم المطالب الاستراتيجية لولاية الفقيه باعتبار الإرهاب ضمانة لتحشيد الميليشيات، ومن جهة أخرى ضمانة للتدخل الأجنبي الذي هو الآخر في النتائج يقدم لمطبخ الإرهاب الإيراني كل مستلزمات البقاء والتمدد في الفتاوى وتجهيزات الأسلحة والتدريب والتجاوزات المحمية بالإعلام والسلطة وكتل سياسية نافذة في البرلمان.

أسلوب الصدمة والترويع تقاذفه النظام الإيراني مبكرا بإقدام أحزابه ومنظماته التي تبنت بفخر المفخخات والعبوات الناسفة والتفجيرات في العراق سنوات الثمانينات من القرن الماضي، أما بعد الاحتلال الأميركي في أبريل 2003 فقد انفتح المشهد على إرهاب سلطة كالتي في إيران مضاف إليه ضياع أبسط القيم من خلال قوائم الاغتيال ومحاسبة الرموز التاريخية، إلى التهديد القسري والاغتصاب، ومعتقلات لا تضاهيها سوى محاصصة التعذيب والإساءة بين القوات الأميركية في سجون الاحتلال ومعتقلات دولة الميليشيات التي مازالت دون رقابة أو ملاحقة أو عقاب.

إجلاء الموظفين من السفارة الأميركية في بغداد، اعتراف ضمني لإدارة الرئيس الأميركي دونالد ترامب بعدم قدرتها على إحداث التوازن المطلوب في إدارة مقادير حكم العراق بسلطة تبتعد عن المشروع الإيراني قياسا إلى مصالحه الوطنية أو قياسا إلى خلفية، تفترضها الولايات المتحدة، ما قدمته من سلطة جاهزة لهؤلاء الذين جاءت بهم وهي أدرى بميولهم وخصائص تكوينهم العقائدي والأيديولوجي والنفسي الذي استغلته ولاية الفقيه لإنجاز مهمة الصدمة والترويع ضد شعب العراق وهي تقصد إيصال أصداء رسائلها إلى العرب، وقد فعلت وتمادت وأوغلت.

ضغط العقوبات الأميركية فضح الإرهاب الإيراني تحديدا في العراق لأنه أعاد النظام السياسي إلى المربع الأول من دون رتوش المظلة الأميركية، وهذا يفسر لنا التخبط في خلط أوراق الأحزاب الإيرانية بين ولاءاتها وجذورها وحجم دورها السياسي والميليشياوي وتشبثها بتحصين مكتسبات الاحتلال حد الاحتراب والتدافع بين التنظيمات والشخصيات، وهو ما يعطي الفرصة للتساؤل عن مدى الترهيب المتعمد للعراقيين وعن دور شعب العراق في ردم المستنقع الإيراني لتتعافى بلاده، فالعراق كما يخبرنا التاريخ والواقع عندما يتعافى تتعافى معه أمة العرب.

أمراض إيران السبعة

علي الصراف
كاتب عراقي

تتوفر الكثير جدا من التقنيات لمعرفة ما إذا كان الإنسان مريضا أم لا، حتى وإن لم تظهر عليه أعراض. ولكن لا توجد تقنيات لمعرفة ما إذا كان نظام سياسي مريضا.

خذ، على سبيل المثال، نظام الملالي في إيران. الكل يرى أنه نظام غريب الأطوار تماما. يتصرف تصرفات لا تنتظم مع السلوك السوي لأي دولة. ويقوم بأعمال ضارة لغيره، كما لنفسه أيضا. حتى لكأن البكتيريا المستشرية في جسده تنقل عدواها إلى الآخرين بمقدار ما تنهش من لحمه وعظامه هو.

لا أعرف ما هي نظائر الفحوص التي يمكن إجراؤها لمعرفة طبيعة المرض وعواقبه، ولكن مقدارا من "التفحص" قد يجعل الأمر سهلا.

1. فهذا نظام أيديولوجي. وهو بمعنى آخر، أعمى البصر والبصيرة. الأيديولوجيا بطبيعتها إنما تعمل عمل النظارة التي تضفي على الأشياء لونها. وذلك ما يحول دون القدرة على النظر إلى تلك الأشياء على حقيقتها.

2. وهو نظام "ثوري". والثورية اصطلاحا مأخوذة من أعمال الثور عندما يهيج. ولكنها في السياسة عمل من أعمال الهيجان حيال كل شيء يبدو مستقرا أو قاعدا على أسس. إنها نسف للأسس، من دون أن يعني ذلك بالضرورة إرساء البدائل على أسس جديدة. فيبدو الهيجان وكأنه نوع من الهستيريا التي تجعل المرء غير مستقر كليا. والثورية تبدو مفيدة لحرق المراحل واختصار الطرق، ولكنها إذ تسير على طرق غير ممهدة عادة، فإنها غالبا ما تغرق في الحفر والمستنقعات والالتواءات التي تجعل من "الثورية" عملا بلا طائل، أو مجرد هيجان من أجل الهيجان نفسه.

3. إنه نظام ديني، أو يزعم أنه نظام ديني، قادر على حل المشاكل الدنيوية. وهذا شيء يشبه الذهاب إلى طبيب الأسنان عندما يصاب المرء بمغص في المعدة.

4. وهو النظام السياسي الوحيد الذي يجعل من "تصدير الثورة" التزاما دستوريا. وكأنه لا يكفي المرء أن يكون هو نفسه مريضا، فيتخذ لنفسه واجبا بنقل المرض إلى آخرين. ولو كانت "الثورة" قبل التصدير بضاعة صالحة في مجتمعها لكان الأمر "نص مصيبة"، ولكن ما بالك وأنها بضاعة لم تقدم للمجتمع الإيراني، حسب مختلف أوجه الإحصاءات، إلا الفقر والفساد والبطالة والمخدرات والدعارة والتخلف الاقتصادي.

5. إنه نظام دكتاتوري – ديمقراطي. إي أنه مثل البكتيريا التي تجمع بين وظيفتين، تؤدي فائدة وتلحق ضررا. فبينما يحكمه ويتحكم فيه كبير الملالي، فإنه لا يجد غضاضة في أن يذهب الناس إلى صناديق الاقتراع لينتخبوا بكتيريات كانت قد مرت عبر مرشحات المؤسسة التي تدعى "تشخيص مصلحة النظام". وهذا التشخيص أقرب إلى التشخيص الطبي المضاد. فما لم يكن المرء مصابا بلوثة ثورية، وهستيريا طائفية، ومستعدا لنشر العدوى، فإنه لا يكون مريضا بما يكفي لكي يحتل مكانه العضوي المناسب في نظام مهستر سياسيا ومهووس طائفيا ومضطرب نفسيا.

6. وهو نظام ميليشياوي يجعل من الدولة مجرد نظام شللي تتنازعه تصورات متضاربة ومصالح آنية، ويعتمد على ترتيبات طارئة لا علاقة لها بأي قيمة من قيم البناء المؤسسي. وهذا حال، لا يقتصر في ضرره على منع الدولة من أداء وظائفها المعتادة، ولكنه يجعلها جهازا مشلولا. وهو عمل يناظر ما يعمله مرض الإيدز عندما يدمر جهاز المناعة أو يمنعه من العمل.

7. كما أنه نظام حرارته مرتفعة وضغطه يعلو من دون سبب، ويبكي باستمرار حتى لكأنه مصاب باكتئاب شديد. وقد يخلع ملابسه ويضرب رأسه بالساطور، أو يسلخ جلده بسلاسل الحديد، فيشعر بالراحة النفسية. وهذا مزيج من الاكتئاب التقليدي والمازوشية التي لم يسبق لمجتمع أن عانى منها مثلما يعاني المجتمع الإيراني ومقلدوه من مجتمعات الاستحذاء الطائفي مع المرض.

ما أعرفه، هو أنه لا يوجد جهاز واحد يمكنه أن يفحص كل هذه الأمراض. حتى أجهزة التصوير المقطعي سوف تضطرب، فتقدم صورة مشوشة لعقل وجسد نهش فيهما المرض كما لم ينهش أحدا من قبل.

هذا نظام أيديولوجي. وهو بمعنى آخر، أعمى البصر والبصيرة. الأيديولوجيا بطبيعتها إنما تعمل عمل النظارة التي تضفي على الأشياء لونها. وذلك ما يحول دون القدرة على النظر إلى تلك الأشياء على حقيقتها

فإذا ما نظرت إلى ملايين الضحايا الذين قُتلوا وتهجروا وتهدمت منازلهم من جراء حزمة الأمراض الإيرانية هذه، فلسوف تدرك أنها أسوأ من الطاعون.

الشعبوية الشرقية

بهاء العوام
صحافي سوري

التعامل مع اللاجئين السوريين كأوراق تسويات سياسية داخلية أو خارجية، أمر يفرغ الفعل الإنساني من محتواه ويجعله محط نقد وليس تقديرا للدول المضيفة. صحيح أن الأزمة السورية امتدت أبعد من توقعات أكثر المتشائمين. إلا أن مساعدة اللاجئين يجب أن تكون فعلا مستمرا حتى يزول سبب لجوئهم.

ما يحصل في تركيا ولبنان وبقدر أقل في الأردن ومصر، هو أن اللاجئين السوريين يُحاكمون وفقا للمتغيرات الدولية في أزمتهم وللمتغيرات المحلية في الدول المضيفة. وأبرز المتغيرات المحلية في هذه الدول ما يمكن وصفه بتصاعد الشعبوية فيها. وكلما استغلت هذه الشعبوية سياسيا وإعلاميا تتضخم للتحول إلى قوة ضاربة.

الشعبوية كانت من أسباب انتصار المعارضة التركية ببلدية إسطنبول، وقد تمددت إلى حد لم يعد يستطع فيه الحزب الحاكم للبلاد تجاهلها، فانخرط مؤخرا في عملية التضييق على اللاجئين السوريين من أجل إعادتهم. صحيح أن الحزب بقيادة رجب طيب أردوغان يستغل اللاجئين منذ بداية أزمتهم بطرق شتى، لكن دفعهم خارج المدن التركية الكبرى على الأقل، بات اليوم ضرورة انتخابية للحزب قبل كل شيء.

في لبنان الوضع أكثر فجاجة والشعبوية أكثر قبحا، لأن صاحب النفوذ السياسي هو حليف لنظام بشار الأسد في دمشق، فتلتقي مطالب الشعبوية بترحيل اللاجئين السوريين مع مساعي حزب الله لإعادتهم إلى بلادهم خدمة للأسد الطامح إلى استعادة شرعيته الميتة. في مثل هذه البيئة العفنة يتصدر المشهد الإعلامي نجوم مثل وزير الخارجية جبران باسيل والفنان عادل كرم، ويمارس الشعبويون على الأرض نفوذهم بأدوات انتقامية همجية ومتطرفة.

أمام الشعبوية الشرقية والغربية، لا يملك اللاجئون السوريون الكثير لإقناع العالم بضرورة إنهاء أزمتهم، ولا يعولون على المعارضة أو النظام في تحقيق ذلك

ويبدو أن الشعبوية الشرقية ذات طابع اقتصادي إلى حد ما، فتجد مطالب ترحيل اللاجئين السوريين في الدول التي تستضيفهم محمولة على أسباب مادية بالدرجة الأولى. فمرة تكون الحجة أن وجودهم يرهق ميزانية الدولة، ومرة أخرى تكون سيطرتهم على سوق العمل المحلية. الأرقام التي تدلل على المنفعة الاقتصادية للاجئين لا تصمد أمام الخطاب الشعبوي، فهو أساسا خطاب انفعالي لا يقوم على الحقائق ومن يتبناه لا يقبل الآخر أيا كانت الظروف.

يمكن القول إن الشعبوية الشرقية أكثر قبحا من نظيرتها في الغرب، ربما يفضل وصفها بالعمياء والصماء في الوقت ذاته، لأنها ترفض الآخر حتى ولو كان مشابها في ثقافته ولا يشكل خطرا فكريا على المجتمع، كما يدّعي الشعبويون في الغرب عندما يحشدون ضد المسلمين والعرب في "بلاد المسيحيين" كما يسمونها.

لا يختلف السوريون عن جوارهم ومحيطهم العربي، فكريا ودينيا وثقافيا، إلا ببعض التفاصيل التي قد تسجل لصالحهم وليس ضدهم. وقبل الأزمة التي حلت في بلادهم بسنوات قليلة فقط كانت سوريا الوطن الثاني للكثير من العرب وشعوب الجوار، ولم تظهر الشعبوية فيها عندما احتضنت اللاجئين العراقيين واللبنانيين والفلسطينيين. أمام الشعبوية الشرقية والغربية، لا يملك اللاجئون السوريون الكثير لإقناع العالم بضرورة إنهاء أزمتهم، ولا يعولون على المعارضة أو النظام في تحقيق ذلك. لم تقدم المعارضة نموذجا أفضل من النظام في مناطق سيطرتها، ولا يزال الشغل الشاغل للأسد هو مطاردة الشباب والرجال، داخل البلاد وخارجها، من أجل تعبئتهم في صفوف الجيش أو الحصول على بدل خدمة يدعم الخزينة المتهالكة للدولة.